مجمع اللغة العربية بدمشق

حفل تأبين الأستاذة الدكتورة

ليلى الصبّاغ

رحمها الله

حفل تأبين
الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ
رحمها الله

مُقدّمة

أقيم في الساعة الثانية عشرة من يوم الأربعاء في ١ رمضان ١٤٣٤هـ الموافق ١٠ تموز ٢٠١٣م في قاعة المحاضرات بالمجمع حفل لفقيدة المجمع الكبيرة الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ رحمها الله تعالى.

وقد اختار الله فقيدتنا إلى جواره يوم الأربعاء في ٢٦ ربيع الأول ١٤٣٤هـ الموافق ٦ شباط ٢٠١٣م بعد رحلة طويلة حافلة بالعطاء المتنوع.

حضر الحفل لفيف من الشخصيات الرسمية والأدبية والثقافية وجمهور غفير ممن عرفوا الدكتورة الصباغ.

- بُدىء الحفل بتلاوة مباركة من الذكر الحكيم، ثم تتابع إلقاء الكلمات كما يلي:
  - كلمة رئيس مجمع اللغة العربية الأستاذ الدكتور مروان المحاسني.
  - كلمة جامعة دمشق ألقاها الأستاذ الدكتور خالد الحلبوني.
  - كلمة الموسوعة العربية ألقاها الأستاذ الدكتور محمد وليد الجلاد.
  - كلمة أصدقاء الفقيدة ألقاها الأستاذ الدكتور أحمد طربين.
  - كلمة تلامذة الفقيدة ألقتها الأستاذة الدكتورة نجاح محمد.
  - كلمة آل الفقيدة ألقاها ابن شقيقها المهندس عامر الصباغ.

وفيما يلي نصوص الكلمات التي ألقيت في هذا الحفل.

كلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني

رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

أيها السيدات والسادة

هل لوجود الإنسان من مغزىً إنْ لم يكن قد طَبَع ذلك الجزءَ من العالم الذي شاء القدر أن يكون من ساكنيه، طَبَعَه بما يصدر عن عقله من فكر يتصدّى لحقائق العالم، شارحًا لها، أو ما تنتجه يداه من أثر تتجلى فيه المؤثرات السائدة والمُهيكلة لعصره؟

نحن أعضاءَ مجمع اللغةِ العربيةِ لَسْنا سوى أفراد قد انتخبهم أفرادٌ قد سبقوهم إلى شرف العمل في خدمة اللغة العربية، وصَلنا إلى المجمع حاملين لخبرات وطاقات فكرية وأمداء ثقافية تم تشكّلها من شذراتٍ جمعناها، من خلال تفاعلنا مع العلوم وطالبيها، ومع التيارات الفكرية الناقدة والمفسّرة، والمعدّلة لآراء وأحكامٍ جرى تداولها في العلوم التي اختص بها كلٌ منا، فكان لزامًا علينا إجالة الفكر في توضيح ما طرأ من تغيّرات على ما كنّا نعتمده من حقائق في ذلك المجال، ساعين إلى تطوير اللغة بما يستوعب تلك التغيرات.

وحين يُصاب مجمعنا بفَقد عضو كان يملأ حيزًا فكريًا محدداً، فإننا نسارع إلى إبراز ما نعتقد أنه كان متميزًا به من نتاج فكري، أو مواقف جريئة في كفاحه لإثبات حقائق كانت غائبة عن الفكر المجتمعي وبخاصة ما يتعلق بالحداثة، وذلك سعيًا وراء إعادة اللغة العربية إلى بريقها المعهود محمّلة بعلوم جديدة لا تضيقُ عن احتوائها تلك اللغة العريقة.

وإني إذ أقف اليوم لافتتاح الحفل التأبيني لفقيدة مجمعنا الدكتورة ليلى الصباغ رحمها الله أرى لزامًا علي الإصرار على ما كان يمثله وجودها في المجمع.

لقد مرت عقود منذ أسس الرئيس محمد كرد علي هيئةً أُطلق عليها اسم المجمع العلمي العربي عام ١٩١٩ ليضم ثلّةً من العاملين البارزين في إتقانهم للغة العربية، والمتمكنين في استعمالها على أعلى المستويات العلمية والثقافية، في جوٍّ غلبت عليه محاولات التتريك المتعصّبة.

إن عهد الاستقلال الأول الذي أُعلن فيه الأمير فيصل بن الحسين ملكًا على سورية كان يحفِل بتحركات وطنية التفّ فيها الشباب حول حكم عربي كانوا يتمنّونه في خواطرهم ولا يجرؤون على الإجهار بتَوقِهم إليه.

ومما يذكره التاريخ أن نساء سورية انضممن إلى الرجال في غليان جماهيري عارم حين تصدى الجيش الوطني للقوى الفرنسية الزاحفة على سورية لتنفيذ صك الانتداب، وأصدرن البيانات لحثّ الشباب على الالتحاق بالجيش للدفاع عن الوطن، كما انخرطت مجموعة كبيرة من سيدات المجتمع في الجيش، وحضرن معركة ميسلون آسياتٍ للجرحى وداعماتٍ للصمود، وقد وصل الأمر في تقديرهنّ إلى إعطاء رتبة عسكرية لإحداهنّ وهي السيدة نازك العابد.

لم تكن هنالك فُرص لمشاركة نسائية في مجالات ثقافية عالية متخصصة كمجالات المجمع العلمي حين تأسيسه، بل برز نشاطهن متميزًا في حقول التعليم، آخذًا بالتوسع مع خطواتِ انتشار تعليم البنات.

ومرّت العقود تلو العقود، تشهد إقبالًا متصاعدًا من قبل الناشئات على إتمام الدراسة ومواصلتها بعد الشهادة الثانوية، حين افتتحت دارٌ لتأهيل المعلمات، وهذا ما ساهم في الارتقاء بالمستويات التدريسية في المراحل الابتدائية والثانوية، وانتهت هذه الإرهاصات الأولى في تعليم البنات إلى فتح أبواب التعليم الجامعي في الآداب والعلوم الإنسانية، وذلك في نهاية النصف الأول من القرن الماضي (١٩٤٧)، ودخلت الطالبات

أفواجًا إلى تعليم مختلط بعد عصور من التزمّت والتعصّب، وأصبحن فيما بعد مدرسات في مدارسَ للبنات انتشرت في جميع المحافظات.

وهكذا كان أن اجتازت فقيدتنا شهادة البكالوريا الأولى عام ١٩٤٢ والبكالوريا الثانية (فرع الفلسفة) عام ١٩٤٣ لتلتحق بكلية الآداب في جامعة القاهرة حيث حصلت عل إجازة بالتاريخ بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٤٧. وحين عادت إلى دمشق دخلت مجال التدريس في المدارس الثانوية ودور المعلمات حتى عام ١٩٥٤.

وارتقى بها نجاحها في فنّ التدريس إلى تسنّم منصب مديرة التجهيز الثانية للبنات، حيث برزت قدراتها الإدارية والعلمية، التي جعلت من تلك المدرسة نموذجًا يُحتذى في الانضباط وحسن السلوك، والمستوى الرفيع من النجاح في الشهادات الرسمية طيلة ثمانية أعوام.

إلا أن طموحها قد حثّها على اللحاق بالدراسات العليا في علم التاريخ، فعادت إلى القاهرة طالبة لشهادة الماجستير.

وقد حازتها بمرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة في فرع تاريخ العرب الحديث عام ١٩٦١ ثمّ أتبعتها بالدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى كذلك عام ١٩٦٦.

ودخلت التدريس الجامعي في كلية الآداب بدمشق عام ١٩٧١ لتصل إلى الأستاذية بدءًا بعام ١٩٧٨ وحتى ١٩٩٣.

إن أطروحتها للماجستير كان عنوانها: الفتح العثماني لبلاد الشام ومطلع العهد العثماني فيها، على حين كان عنوان أطروحتها للدكتوراه: الجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ولابد من القول إن هذين العنوانين لا يعطيان أكثرَ من فكرة محدودة عن المجالات المختلفة التي انغمست فيها، واستقصت خباياها الدكتورة ليلى الصباغ رحمها الله حين تناولتها في كتبها ودراساتها وبحوثها.

أيها السيدات والسادة

لا يسمح مجال هذا الحفل التأبيني بأن نلقي أكثر من نظرة عابرة على الموضوعات التي أعملت فيها فكرها التاريخي، الذي اتّصف بلمحات مجتمعية، وأخرى اقتصادية، إلى جانب دراسات في الأدب العربي بين القرنين السادس والثاني عشر للهجرة، وفي الحضارة العربية الإسلامية. وقد خصصت كتابًا عن المحبّي صاحب كتاب خلاصة الأثر، وكتابين عن المؤرخ الكبير ساطع الحصري، كما أنها وزّعت بحوثها بين شخصيات تاريخية كعبد الملك بن مروان، وأحداث تاريخية هامة كثورة مسلمي غرناطة عام ١٥٦٨. كما أنها أعطت للمرأة العربية حقَّها تاريخيًا في كتابها عن المرأة في العصر الجاهلي، وعن المرأة المعاصرة في كتابها عن الأدب النسائي المعاصر العربي والغربي، وفي كتابها: نساء ورجال في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع.

ولعل كتابَها عن منهجية البحث التاريخي هو الألصَقُ باختصاصها مما كتبته في تفّرعات ذلك الاختصاص، ذلك أن الحاجة إلى نظرة عصرية فاحصة تربط بين النظريات التاريخية الحديثة وبين مسارات المؤرخين العرب القدامى، كانت حاجةً مُلّحة لإظهار سَبْق ابن خلدون إلى معظم المسالك التي يسلكها المؤرخون المعاصرون كبروديل[1] وتوينبي، وجورج دوبي، وكذلك هيغل في دروسه عن فلسفة التاريخ.

فقد تجاوز ابن خلدون مسارات المؤرخين السابقين له، وبخاصة الإخباريين والمهتمين بتاريخ المغازي، وعيون الأخبار، والمرددين لروايات السلَف، واختط منهجًا يستقصي العوامل المؤثرة في مجريات التاريخ. والمؤسف أن العرب تعرفوا بابن خلدون وعبقريته بعد أن

(1) Braudel / Toynbee / Georges Duby / Hegel

اكتشف سيلفستر دو ساسي[1] مقدمة ابن خلدون عام ١٨٠٦ ثم ترجمها ونشرها كاترمير[2] عام ١٨٥٨ وكان أن انبثقت عن دراسة الغرب لمقدمة ابن خلدون معظمُ العلوم الإنسانية الحديثة، كعلم الاجتماع، وعلم البشريات، والسياسة والاقتصاد، بالاستناد إلى طروحٍ تضمنتها مقدمة ابن خلدون.

إن كتاب الدكتورة الصباغ (١٩٨٠) هو دراسة عصرية تُقدّم منهجية نقدية علمية تجيب عن بعض التساؤلات عن حقائق كتابة التاريخ، وذلك من قبل باحثة مثقفة ثقافةً معرفية تراكمية عالية، وهو كتاب هام يسعى إلى قراءته اليوم من أراد تجاوزَ هجوم كلٍّ من عبد الله عنان وبخاصة الدكتور طه حسين على ابن خلدون الذي يتهمه بالخيانة والشعوبية، وقد ردّ عليه ساطع الحصري في كتابه «دراسات عن مقدمة ابن خلدون».[3]

وأما اهتمامها بدراسة أوضاع الجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهو الموضوع الذي بنت عليه رسالة الدكتوراه، فهو التفات إلى النواحي الاجتماعية والروافد الحضارية التي ظهر تأثيرها في بلاد الشام بعد تعرّضها لغزو الفرنجة.

فحقيقة الأمر أن اختزال غزوات الفرنجة لبلاد الشام بأنها مجرّد جولات عسكرية احتلت البلاد، وأقامت فيها الحصون لتحرس المناطق التي تم احتلالها وتأسيسُ إمارات فيها، إنما يكون تجاهلًا لحقائق ما يعنيه هذا الاحتلال طيلة عقود وعقود من تاريخ بلاد الشام، من أثر مجتمعي وثقافي، وما يتركه في اللغة من مفاهيمَ غريبة وتسمياتٍ دخيلة. فقد أصرّ المؤلفون الفرنجة في كتبهم على توصيف ما رأوه في بلاد الشام من عادات ونشاطات تجارية استفاد منها الغزاة ولم يقيموا وزنًا لما تركوه من أثر في البلاد المحتلة.

---

(1) Sylvestre de Sacy

(2) Quatremère

(٣) ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٨-٥٨٢ دار المعارف القاهرة ١٩٥٣.

وأما دراسة الدكتورة ليلى الصباغ فتختصّ بأثر تلك الجاليات الأجنبية التي أخلفها الاحتلال بعد جلاء جيوشه، إذ إن الجمهوريات الإيطالية كجنوا وبيزا والبندقية، التي كان لها دور كبير في تثبيت الاحتلال بتسخير أساطيلها لخدمة الغزو، قد أفرزت رواسيَ تجارية في معظم مدن بلاد الشام، اتخذت شكل مؤسسة تجارية قائمة في حيز معين، في بيروت وطرابلس ودمشق وحلب، أطلقوا عليها اسم «الفندق» يقيم فيها التجار الأجانب ويختزنون بضائعهم فيها. وكانت لهذه الفنادق سيطرة حقيقية على تجارة الأقمشة، والتوابل والعاج، والأحجار الكريمة والكهرمان، وهي تتولى تصدير الأقمشة الشرقية المطرزة والسيوف الدمشقية، وماء الورد والفواكه المجففة.

وقد تأكد استقرار تلك المؤسسات بحماية فرنسية بعد أن قبلت السلطنة العثمانية وجودَ امتيازات لهذه الجاليات عام ١٥٨١، وهذا ما دعا الدكتورة الصباغ إلى دراسة الأثر الحضاري لتلك الجاليات، وما أدخلته من مفاهيمَ ومفرداتٍ مازالت واضحة في لغتنا، لتسمية أمور مختلفة دخلت في التداول اليومي، في مجالات المال والتجارة والأمور الحياتية، ومازالت قائمة في مخزوننا الثقافي واللغوي، وهي جاليات لم تقتصر على رجال التجارة والمال بل إنها ضمّت أطباء ومهندسين وبعثات دينية.

كما أنه كان لفقيدتنا مسارٌ فكري واسعُ الأفق في المجال التاريخي جعلها تدرُس أحداثًا هامةً لم يتطرق إليها كثير من المؤرخين، كدراستها عن ثورة مسلمي غرناطة عام ١٥٦٨ التي شرحت فيها أحوال الموريسكيين، أولئك الأندلسيين المسلمين الذين قبلوا اعتناق النصرانية بعد سقوط الأندلس عام ١٤٩٢، ليبقوا في بلادهم وكانوا يمارسون إسلامهم خفيةً، واخترعوا لأنفسهم لغةً عربية كتبوها بحروف لاتينية للتواصل بينهم. وقد تم طردُهم من إسبانيا عام ١٦٠٠ واستقر معظمهم في المغرب العربي.

وهكذا نرى أن عمق وتنّوع إنتاج الدكتورة ليلى الصباغ رحمها الله مضافًا إلى تميزها في المستويات التدريسية المختلفة التي تولت مسؤوليتها، وبخاصة انفتاحها الثقافي الواسع، كلُّها أمور جعلت ترشيحها لعضوية مجمع اللغة العربية أمرًا مفروضاً، وقد تجاوب معه مجمعنا عام ٢٠٠٠، متجاوزًا أعرافًا لا مُستندَ تراثيًا لها، فانتخبت عضوًا عاملًا في مسارٍ لم تسلكه المجامع العربية الأخرى حتى اليوم، فكانت أول امرأة تدخل مجمعًا علميًّا عربيًّا. وكان استقبالها عام ٢٠٠١ خلفًا لأستاذي الكبير الرئيس الدكتور حسني سبح رحمه الله، وقد أبرزتْ في خطاب استقبالها حذقَه اللغوي المستندَ إلى ملكة حقيقية في اللغة الأم وفهم واضح للمصطلح الآتي من لغة أجنبية تعتمد جذور لغتين بائدتين.

أيها السيدات والسادة

إن مراجعة السيرة الذاتية لفقيدتنا تكشف لنا أنها لم تشأ الانخراط في الحركات النسائية التي ضمت معظم المثقفات في بلاد الشام طيلة القرن العشرين تحت تسميات ثقافية واجتماعية، بل إنها اكتفت تضمين كتبها ودراساتها ما يؤكد ذلك الموقع العميق الأثر، الذي تبوأته المرأة العربية منذ العصر الجاهلي، وصولًا إلى العصر الحديث، في مجالات الأدب شعرًا ونثرًا وفي مجالات الفكر والسياسة.

بل إن تلك المراجعة للسيرة الذاتية تبيّن ولَعها بالعملية التدريسية على مستوياتها المختلفة، مُدرّسةً للتاريخ في التعليم الثانوي منذ تخرجها عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٥٤، إضافة إلى إدارة مدرسة التجهيز. وانتدبت أستاذةً زائرة في جامعة الجزائر انتقلت بعدها إلى تدريس التاريخ في جامعة دمشق حتى عام ١٩٩٣.

لقد ارتكز هذا المسار التدريسي إلى شغف حقيقي بدقة التعبير، وهي تستند في عملية الإفهام إلى مسار فكري يعضده مخزون ثقافي واسع. فقد كانت الدكتورة ليلى الصباغ كما عرفناها في مجمعنا تملك قدرةً متميزة على توضيح فكرتها في كل موضوع تناولته، إذ كانت حريصة على أن يصل المتلقي إلى فهمٍ دقيق للرأي المطروح، وذلك اعتمادًا على خبرتها التدريسية، إذ إنه لا يكفي للمدرس أن يكون متمكنًا من علمه، فاهمًا لدقائقه، بل لابد له من الوصول إلى إفهام المتلقي عن طريق ترتيب العناصر المعروضة وتقديمها تقديمًا مترابطاً. ولاشك بأن دراستها للفلسفة في نهاية الدراسة الثانوية قد أسست مستندًا لها لتنسيق الخطاب، بما يراعي قواعد المنطق ويراعي المدارك العقلية للمتلقي. إن هذه المستندات الفكرية أساسية في تدريس التاريخ الذي يلتقي فيه الماضي بالحاضر، والذي يتطلب نظرة تحليلية تفسّر الوقائع، وتشرح ما يمكن الوصول إليه من مُسبباتها ليمكن توضيح التناغم بين الأفعال وبين أصدائها.

ولعلّ عزوفَها عن المشاركة في الجمعيات النسائية يعود إلى أنها أيقنت أن مساهمتها في تلك النشاطات لن توصل المجتمع إلى ما يصبو إليه من مشاركةٍ حقيقية للمرأة في مختلف المجالات الاجتماعية، إن لم تكن المرأة قد وصلت عن طريق التعليم القويم إلى إدراك ما لها من موقع مركزي في حياة الأمة، كي لا تقبل ما كان سائدًا من تهميش للمرأة، وتشكيك في مقدرتها على المشاركة في بناء الوطن.

ولقد كانت مساهمة فقيدتنا في الوصول إلى هذا الهدف باديةً فيما شهد به العديد من المثقفات اللواتي ظهرن على مسرح الحياة، وكنّ يَلهَجْن بالثناء على تميزها في العملية التعليمية، والحكمة التي كانت تسيّر بها أمور البنات حين تولّت إدارة التجهيز الثانية بدمشق.

أيها الحفل الكريم

تمرّ الأيام بأفراحها وأتراحها، نجد فيها المُسِرّ قصيرًا والمُحزن طويلاً، ونبقى منطلقين في مساراتنا الحياتية تحملنا ثقافة تَشرّبتها عروقنا، مُعبّرين عن ذواتنا بلغة عريقة تتفاعل في داخلها جُزيئات حية يتكامل تناسقها لتنبلج عنها في أذهاننا صورٌ وتخيلات تثير المشاعر، وتتحكم في تفاعلنا مع ما يحيط بنا.

إن لغتنا هي تاريخنا كمجموعة بشرية تفاعلت مع الأحداث والنائبات، والهزائم والانتصارات، فأصبحت جزءًا مكونًا في تاريخ المجموعات البشرية الأخرى، إذ إنها شاركت في إقامة الحضارة التي نتفيأ ظلالها، وهذا ما يجعل موقعَ لغتنا في المسار الحضاري معرفةً لابد للتعليم أن يرسّخ أصولها في أدمغة الناشئة، ليصلوا إلى فهم عالمهم فهمًا نيّرًا يرتكز إليه مسارهم الحياتي.

نحن في مرحلة تاريخية نرى فيها الغوائلَ تَنهش في حقائق حضارتنا ومرتكزات ثقافتنا بغية إغراقنا في لجّة العولمة، وهذا ما يجعلنا نرى في تدريس التاريخ، والمساهمة في تسليط الأضواء على منعطفاته، رسالةً نبيلة تنمّي القواعد الفكرية التي يبني عليها الطالب إدراكه لذاته، وتتيح له فُرص التعرف بالآخر، وهذا ما يجعلنا نُعظم شأن من يسعون إلى كشف خبايا التاريخ وشرح غوامضه، وتسليط الأضواء على تضاعيفه.

ونحن اليوم إذ نشيد بفقيدتنا أستاذةً كبيرةً قد تمثلت فيها روح الأستاذية على خير وجه، كما تمثلت فيها الدوافع إلى توضيح ما بقي غامضًا من أحداث ومنطلقات تاريخية، نؤكد إكبارَنا لهمّةٍ عالية حملت لواء الإخلاص للعلم، وكانت مثالًا للتجرّد في خدمة ثقافتنا العريقة، وقد أكّدت جدارة المرأة في بلادنا، ومقدرتها على المشاركة في بناء الشخصية العربية الحديثة.

وإني إذ أبدي تقديري لاهتمامكم وأشكر لكم حضوركم أرجو من الله أن يخص فقيدتنا بواسع رحمته ويسكنها فسيح جنانه.

والسلام

كلمة جامعة دمشق

ألقاها الأستاذ الدكتور خالد حلبوني

عميد كلية الآداب

السيدات والسادة

الحضور الكريم

أما بعد

فإن كوكبة من مجموع الأمة تبقى ملء الأفواه والأسماع، في حضورها الزّمني، وبعد رحليها إلى عالم الغيب، فهي تمثّل عبقرية العطاء، تعليمًا للأجيال وتأليفًا في عالم الثقافة والمعرفة.

ومن هؤلاء الذين فتحوا نوافذ الفكر، وشمخوا بجبهة التاريخ العربي: الدكتورة ليلى الصبّاغ، حيث سارت سيرتها، وحققت مكانتها على سنن علم التاريخ منهجًا وضّاءً يُشعّ في القرّاء وطلاب العلم قوًى عميقةً تتجلى في خصوبة عرض الحقائق، وفاعلية التعبير.

وإذا كانت الكتابة نقشًا خالدًا على جدران الزمن، فإن تلك الكتابة تزداد نوراً، وتسمو مدارج عليا حين يتحلّى كاتبها بفيضٍ زاخرٍ من الإنسانية وكريم صفاتها، والمنظومة الأخلاقية ودلائل خيراتها، فإذا بالكتابة في قمة إبداعها تتحول إلى لون فكريٍّ له تأثيرُهُ الحضوري، لتحقيق النهضة الثقافية، فهمًا ودرايةً، ومنهجًا ينقلب إلى فعلٍ إبداعيٍّ خلاّق.

السادة الحضور

عُرِفت الدكتورة ليلى الصبّاغ بأنها نموذجٌ إنسانيٌّ علمًا وتعليماً، وطفح محبة للمعرفة وطلابها، فلم تضنّ يومًا بنصيحة أو إرشاد.

وكانت تسعى بكلِّ جهدها لتصحيح مسار التّاريخ، وسرد الحقائق، ودفع الشّبهات، حفاظًا على تاريخ الأمة وحرصًا على منهجية البحث العلمي، وهذا ما جعلها تتربّع على عرش العلم، ويُقِرُّ لها بالفضل من عرفها عن كثب، أو تناهى إلى سمعه سمعتها الطيبة، التي سارت بها الرّكبان.

كانت الدكتورة ليلى ذات أسلوب سهل، وعطاءٍ متدفق، وذكاءٍ حاد، وخاطرٍ سريع، وفهمٍ دقيق، وهذا ما أهّلها لتحوز مرتبةً هيهات أن يصل إليها الكثيرون.

وقد دأبت الأستاذة الصبّاغ – مدى حياتها– على نشر العلم وفق منهج يرنو إلى الصّحة ويأخذ بالأشدّ، ولم تقطع نفسها جسور الثقافة، إذ كان الكاتب خير جليسٍ لها، مع حرصها الشديد على الاستزادة من المعرفة، حتى صارت مضرب المثل بين أقرانها ومعارفها، وتلك لعمري مزيّة المؤرَّخ المنطلق إلى آفاق الكلمة الطيبة، حيث لا يعرف الكلال ولا الملال، فراحته في اصطياد كلمة، أو إزاحة غبارٍ عن فكرةٍ هُجِّرت، أو قولٍ علاه الغبش، فبوابة المعرفة لا بدّ أن تنير عتمة الطريق.

ونحن في عصرٍ يسوده التنوير، فيبقى العلم مهوى فؤاد المؤرخ الحق، ولن ينفكّ عنه ما دام هناك نفسٌ يتردد، وقلبٌ يخفق بحبّ الحقيقة.

الحضور الكريم

نحن في رحاب رائدةٍ من رواد الفكر العلمي، والأدب الثّر، والتربية الهادفة، والتعليم على مستوى الوطن، فاستطاعت أن تشقَّ لنفسها طريقًا محفوفًا بالمشقّات، لتصبح أول امرأة تدخل مجمّع اللغة العربية بدمشق منذ تأسيسه، بناءً على توصيةٍ من لجنة

الأكاديميين العرب، حيث كُرِّمت عام ألفين للميلاد، فكان مقعدها المجمعيّ إقرارًا بمكانتها واعترافا بأهمية ما قدمت وألّفت.

تلكم هي الدكتورة ليلى الصبّاغ، إحدى علامات دمشق، وجزءٌ لا ينفصم عن تاريخ الشام الحديث، فقد أنجزت العديد من المؤلفات وأهمّها: (دراسة في منهجية البحث التاريخي) و(تاريخ أوربة في العصر الحديث)وكلاهما كان معتَمَدا في **جامعة دمشق** العتيدة.

ولم تكن الدكتورة ليلى مصنِّفة فحسب، بل كانت مربِّية فاضلة، علّمت الأجيال الخلق الحسن، والالتزام، والجدّية في البحث، والمنهجية العلمية في الكتابة التاريخية، مع التفاني والإخلاص، فسخّرت إيمانها الصادق بالمُثل والقيم، مدفوعةً بإرادةٍ لا تلين، لترسيخ منهجٍ فكريٍّ متألق، في مختلف النواحي الثقافية والاجتماعية، مع رعاية مكانة المرأة في الأدب والإصلاح، فكانت مرآةً لامعة تعكس صورة المرأة وثقافتها في كلِّ منتدًى فكري، أو مَجمَعٍ ضمَّ نخبةً ثقافيةً، فهي بمخزونها الذي لا ينضب تركت أثرًا واضحاً، بمنهجيتها العلمية، وزخمها المعرفي، وخبرتها الطويلة.

السيدات والسادة

الدكتورة الصبّاغ من أصحاب الكلمة الصّادقة الوفيّة للتاريخ، والمواقف الوطنية، فعبّرت عن روح الأمة، ولا سّيما إن علمنا أنها ترعرعت في أربعينيات القرن الماضي، فتحدّت تقاليد راسخة، وبزغت شمس فكرها بين بنات جيلها، لترحل في طلب العلم إلى القاهرة، وتُدرِّس في أكثر من بلدٍ عربي، وتتحمل مسؤوليات التعليم والإدارة في ميادين مختلفة، فكان لها خطٌّ متفرّد، يقوم على الدقة، ويتميز بالجمع بين عراقة الماضي وتطوير الحاضر لرسم مستقبلٍ واعدٍ للجيل الصاعد.

رحم الله **الدكتورة ليلى الصبّاغ**، ونفع بمؤلفاتها، فهي سِفرٌ مبدعٌ في تاريخ الوطن، عبر مسيرتها الطويلة تعليماً، وتأليفاً، وتربية أجيال، فكانت أهلًا للاحتفاء بها، وذِكرِها مع كوكبة المدرِّسينَ الجامعيِّين وروّاد مجمعِ اللغة، بكلِّ إكبار وإجلال.

شكرًا لكم، والسلامُ عليكم

كلمة الموسوعة العربية

ألقاها الأستاذ الدكتور محمد وليد الجلاد

الأستاذ الدكتور مروان محاسني رئيس مجمع اللغة العربية المحترم

الأساتذة أعضاء المجمع الموقرون

السادة الحضور

تحية وبعد

يشرفني أن أقف بينكم اليوم لأتحدث عن فقيدتنا الغالية العزيزة على نفسي، والتي أكنُّ لها بالغ الاحترام والتقدير، لما عرفته منها من تواضع العلماء ووقار الأجلاّء إلى جانب المعرفة العميقة والاطلاع الواسع.

عرفتها أول مرة، مديرةً للتجهيز الثانية للبنات في دمشق، وقت كانت إحدى قريباتي طالبة فيها. وعرفتها مرة ثانية في أواسط السبعينيّات من القرن الماضي، أستاذة مادة التاريخ الحديث في جامعة دمشق حين كُلِّفت، أنا وبعض زملائي، دراسة تشكيل لجنة متابعة لموسوعة عربية شاملة، وقد ضمت اللجنة خبراء من كبار الأساتذة في سورية والبلاد العربية، وكانت مهمتها الإعداد لإصدار موسوعة عربية شاملة. وكنت أمين سر تلك اللجنة. وكان اللقاء الثاني مع الدكتورة ليلى لاستشفاف رأيها حول الموسوعة العربية. وقد تُوِّجت جهود كل من شارك في هذا الإعداد بصدور المرسوم التشريعي/ ٣/ لعام ١٩٨١ بإحداث هيئة الموسوعة العربية، وتعيين المرحوم الدكتور شاكر الفحام مديرًا عامًا للهيئة يعاونه مجلس إدارة مؤقت.

وانصرمت بضع سنوات من العمل الجاد من أجل تهيئة الأُطُر اللازمة للهيئة واستصدار أنظمتها، ووضع الخطط والتصورات الضرورية لاختيار الموضوعات التي ستتناولها الموسوعة.

وفي الشهر التاسع من العام ١٩٨٤، وبعد أن تكاملت وجهات النظر المختلفة، صدر النظام الداخلي لهيئة الموسوعة العربية، الذي حدد أهداف الهيئة ومهامها وجهازها الإداري والعلمي، ونص على أن تضم الهيئة ثمانية أقسام علمية يختص كل قسم منها بناحية من نواحي المعرفة، ووقع الاختيار على المرحومة الدكتورة ليلى الصباغ لتكون أول رئيس لقسم الحضارة العربية في الهيئة، لما عهد عنها من سعة الاطلاع وتعمقها في هذا المجال.

وهنا كان اللقاء الثالث بيني وبينها بصفتي مديرًا لإدارة الوثائق والاتصالات العلمية في هيئة الموسوعة العربية. ومرت الأيام سريعة، بضع سنوات، ونحن نعمل معًا في اجتماعات يومية وجلسات أسبوعية، حتى تكامل المساق العام للموسوعة العربية، وشرعنا في توصيف موضوعاتها وانتقاء الباحثين وتكليفهم. وفي عام ١٩٨٨ طلبت المرحومة الدكتورة ليلى إعفاءها من العمل في الموسوعة. ولما سألتها عن السبب قالت، على ما أذكر، إنها تريد أن تتفرغ لإنجاز مشروعات كثيرة في ذهنها، وتريد أن تنتهي من نشر عدة كتب من تأليفها، وأن العمل في هيئة الموسوعة يشغل الكثير من وقتها.

أقف هنا، لأسترجع بعض ما بقي في ذاكرني من أعمالها القيمة في هيئة الموسوعة العربية، وعنايتها الفائقة في انتقاء الموضوعات التي تخص قسم الحضارة العربية. ومع أن قسم الحضارة العربية ضم عددًا من الأساتذة رؤساء الشعب والخبراء المتخصصين، فقد وقع العبء الأكبر من العمل على عاتقها، ولا سيما ما يتصل بانتقاء موضوعات مساق القسم. وهو مجهود لا يمكن تصور حجمه إلا لمن عاناه، ولا سيما في مراحل التأسيس الأولى. فقد كان عليها أن تراجع أمهات المصادر التاريخية والتراثية ومعاجم الأعلام

والموسوعات المتخصصة لتنتقي من كنوز الحضارة العربية ما يجب أن تضمه الموسوعة بين دفتيها. ولم يكن عملنا في هيئة الموسوعة العربية آنئذ مؤتمتاً، فكان على المرحومة أن تملأ بقلمها ما لا يقل عن خمسة آلاف جذاذة معلومات، استقتها من موسوعة الإسلام ومعاجم الأعلام وكتب السيرة والتاريخ والأنساب والشريعة واللغة وغيرها. وقد سلَّمت إليّ كلَّ ما أنجزتْهُ حتى ذلك الحين، واضطررتُ، بعد أن غادرتِ الهيئة، إلى مراجعة تلك الجذاذات مع أعضاء القسم لغربلتها، وانتقاء ما يُماشي نهجَ الموسوعة وهدفها، ثُم عرضها على مجلس الإدارة لإقرارها، ودمجها في مساقات الأقسام الأخرى في الهيئة وفق الترتيب الهجائي.

لم تكن جذاذت مساق قسم الحضارة العمل الوحيد الذي أنجزته الدكتورة ليلى للموسوعة، فقد كان من صلب عملها وضع التوصيف المقترح لكل بحث من بحوث مساق قسم الحضارة العربية بعد الموافقة عليه، وانتقاء الباحثين وتكليفهم كتابة البحوث، ثم مراجعة ما أعد منها، وإقرارها. كما أنها أعدت بقلمها كثيرًا من بحوث القسم، وخاصة تلك التي تبدأ بالحروف الأولى من حروف المعجم، واستمرت تكتب للموسوعة حتى بعد أن تخلت عن التفرغ للعمل في الهيئة. ومما يؤسف له أن ما قرأته مما نشر عن سيرة المرحومة ليلى الصباغ بعد وفاتها لم يتطرق ولو بكلمة واحدة إلى عملها وإنجازاتها في هيئة الموسوعة العربية طَوال سنين أربع.

الحقَّ أقول، إن المرحومة الدكتورة ليلى الصباغ كانت علاّمة بكل ما في الكلمة من معنى، وباحثة متعمقة ورائدة من رواد الفكر في الوطن العربي، جمعت بين الأدب والتاريخ، بمنهجية علمية صارمة في التأريخ والتحقيق، لا تتوانى عن البحث في أدق التفاصيل، وتتعمق فيها غير عابئة بالصعوبات التي تعترض طريقها. تحرص حرصًا شديدًا على مواكبة العصر غير مبتعدة عن الجذور، على صعوبة تلك المعادلة بين الطرفين.

تركز على الهوية واللغة وقراءة التاريخ والعبرة منه في خدمة المجتمع، إلى جانب عنايتها بالجانب النسائي في السياسة والأدب. وقورة إلى درجة الكمال، متفهمة غاية في التفهم، تقدر الناس حق قدرهم، وتحترم الجميع.

لقد كان فقدها خسارة كبيرة لصرح الثقافة في سورية، فهي معلم من معالم دمشق في الفكر والأدب والتربية والتاريخ، وجزء لا ينفصم من تاريخ الشام الحديث. تركت بصمات واضحة في كل المجالات التي طرقتها، واستحقت التكريم أينما وجدت. ويكفيها أنها كانت الأولى في كل عمل أسند إليها، وأنها العضو النسائي الأول في مجمع اللغة العربية بدمشق منذ تأسيسه عام ١٩٢٢.

وشكرًا لاستماعكم.

كلمة أصدقاء الفقيدة

ألقاها الأستاذ الدكتور أحمد طربين

كنت في خلال التدريس الجامعي المبكر في جامعة دمشق، أسمع عن زميلة في التعليم الثانوي هي الأستاذة ليلى الصباغ، وتصلني أخبار إدارتها الحازمة لثانوية البنات الأولى بدمشق، وكيف أنها استطاعت بحكم شخصيتها القوية الجذابة، أن تغرس في قلوب الذين يقدرون هذه المزايا إعجابًا متزايدًا بالجهود المتفانية، التي كانت تجود بها في خلال إدارتها الحكيمة للثانوية، والقيم الحقيقية التي يجب أن تتحلى بها فتاة هذا الوطن، من مثل المعرفة والثقافة والقومية والوحدة.

ولدتْ بدمشق في العام ١٩٢٤م، ونالت شهادتي البكالوريا الأولى والثانية في العام ١٩٤٣، ثم أوفدت مع جماعة من المعلمين والمعلمات إلى جامعة القاهرة (فؤاد الأول) لدراسة التاريخ، ونالت الليسانس في العام ١٩٤٧ م، وعُينت مدرسة في وزارة المعارف، ومدرسة للتاريخ في دار المعلمات، وتولت إدارة ثانوية البنات الأولى، وانتدبت بعد ذلك مفتشة أولى للتاريخ والجغرافيا حتى العام ١٩٦٧. وفي غضون ذلك ألقت الدكتورة ليلى أحاديث عن الثقافة العربية والتاريخ ومقومات الشخصية العربية في الإذاعة السورية في المدة ١٩٥٧ – ١٩٦٠م، إضافة إلى المحاضرات والندوات في الجمعيات الثقافية والعلمية. وقد وجدت فقيدتنا الغالية أن إدارة الثانوية يمكن أن تبلور حول الشخصية والمبادرة الفردية لجيل البنات الكثير من مشاعر الحماس لروح الاستقامة في الأعمال والمنجزات

والأخلاق، التي كانت تنشرها بين فئات البنات الطليعيات اللاتي يتحلَّقن حولها، وسرعان ما يستجيبون لها في كل بادرة من بوادر التعليم والثقافة الذي نذرن له أنفسهن.

وهؤلاء الرائدات هن اللاتي كن ينظمن المحاضرات واللقاءات التربوية والعلمية والثقافية، التي يتطلعن لنوال رضا المديرة الشابة العاملة، التي ترغب في أن تنتظم هذه القيم كافة في بنات الجيل الصاعد من الوطن. وقد دُعيتُ لسماع محاضرة الفقيدة كان عنوانها الأديب لعالمي "طاغور"وكنت أستشعر فيها مدى الاحترام العميق الذي كان يراود هذا الجيل الطالع من وطننا الغالي.

ولا حاجة إلى القول أن الماضي الذي عاشته فقيدتنا يحتاج إلى محاضرة بذاته، نظرًا للغنى الفائض الذي كان يشع من حول شخصيتها النافذة والمؤثرة.

ولكن د. ليلى التي توفي والدها وهي طفلة، كانت تتطلع بقوة نحو المستقبل، نحو مرحلة التعليم الجامعي. ولذا فإنها برغم ثقل مهامها الإدارية و العلمية استطاعت أن تدخر من وقتها وجهدها ما يسمح لها بنوال درجة الماجستير في العام ١٩٦١م، بعنوان "الفتح العثماني لبلاد الشام ومطلع العهد العثماني فيها" من جامعة القاهرة وبعد ذلك انتقلت إلى الدكتوراه فنالتها بدرجة متميزة عن " الجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر بالعهد العثماني في العام ١٩٦٦م من الجامعة نفسها، وبذلك تمكنت أن تلبي المشاعر العميقة التي تؤهلها للعبور إلى المرحلة الجامعية، حيث رغبت في الانضمام إلى هيئة التدريس في قسم التاريخ بجامعة دمشق (١٩٧٨م).

عُهد إلى الدكتورة ليلى أن تدرس مواد التاريخ الإسلامي في أقسام التاريخ والجغرافية واللغة العربية ،وكان انطباعي عن تدريسها أنها جمعت نصاعة اللغة العربية وتعمقت في مصادر البحوث ومراجعها دون أن تفارقها نظرتها الفاحصة المُتأنِّية إلى ما

كان يدور حولها. ثم طلب إليها أن تدرس مساق الدولة العثمانية والأقطار العربية وتمكنت من تأليف مرجع جامعي في هذا الموضوع، وعالجت بحوثه بروح العالمة المجربة، كما ألّفت كتابًا عن تاريخ أوربا في العصور الحديثة.

أما المستوى التعليمي والثقافي الذي كانت تمارسه فقيدتنا الغالية، فيلخص في عديد من المؤلفات والكتب ومنها:

- المجتمع العربي السوري في العهد العثماني.
- المرأة في التاريخ العربي (العصر الجاهلي).
- نساء ورجال في الأدب والسياسة.
- من الأدب النسائي المعاصر.

إضافة إلى العديد من البحوث والدراسات التي نشرت في المجلات العربية والأجنبية.

ولن أتحدث الآن إلا عن تجربة فقيدتنا في منهجية البحث التاريخي لأنه الأبرز في حياتها الجامعية المشهورة: حين جرت إعارتي إلى جامعة الكويت في العام ١٩٧٢، رغبتُ إلى قسم التاريخ أن يوافق على أن تتولى الزميلة د. ليلى تدريس مقرر منهجية البحث، وانطلقتُ ثلاث سنوات ثم عدتُ إلى جامعة دمشق، وهنا وجدتُني أقلّب كتابا عن منهجية البحث وضعته الزميلة، وأعطته من ذات وقتها وذات علمها حتى بدا بهذا الشكل المتميز.

والحق أنني دهشت كيف تَسَنَّى للزميلة استكمال محتويات هذا الموضوع النظري والعلمي، وما كان مني إلا التهنئة الخالصة على الجهد المشكور الذي بذلته في هذا الكتاب.

والحق أن د. ليلى وعت كل ما كنت أحاول تدريسه، فزادت عليه واستعانت بعديد من المؤلفات العربية والأجنبية المتصلة به، حتى إنني أعترف اليوم بأنها تجاوزت الخطة التي وضعتها لكتابي، وصار كتابها العُمدة الأصيلة في موضوعه.

لقد أبدعت د. ليلى حين عّرفت منهج البحث التاريخي بأنه مجموعة الطرائق والتقنيات التي يتبعها الباحث التاريخي للوصول إلى الحقيقة التاريخية، وإعادة بناء الماضي بكل دقائقه وزواياه، وهذه الطرق قابلة دائمًا للتطور والتكامل مع تطور مجموع المعرفة الإنسانية.

وأشارت د. ليلى إلى الجدل والنقاش القائمين بين المؤرخين والعلماء و الفلاسفة في القرن التاسع عشر، اللذين دارا حول طبيعة المادة التاريخية وطرائق الوصول إلى الحقيقة الثابتة فيها، ورأت، كما رأى أساتذة المنهج، أنه لا سبيل إلى أن يكون التاريخ علمًا تجريبيًا كعلم الفيزياء والكيمياء، لأن مادته هي (الحوادث البشرية)، فلا يمكن تجربة حرب أو تفجير ثورة، والحوادث لا تكرر ذاتها. ورأت بحق أن التاريخ معرفة علمية دقيقة، وأنها ذات منهج أو طريقة في البحث والتقصي- مماثلة لمناهج العلوم الوضعية الأخر ى، وتناولت دراسات المنهج باللغة العربية حتى الربع الثاني من القرن العشرين، وكيف أن بعض المؤرخين العرب ردّوا على المؤرخين الغربيين وواجهوهم بأن العرب سبق لهم أن عرفوا (طرائق النقد الحديثة)في التاريخ قبل أن يعرفها الغربيون بوقت طويل.

وأكدت فقيدتنا أن أول كتاب بُسط فيه إلى حدّ ما منهج البحث التاريخي، كان كتاب المؤرخَيْن الفرنسيين **سينيوبوس ولانفلوا** في أواخر القرن التاسع عشر- (١٨٩٨م) باسم (مدخل للدراسات التاريخية) وترجم جزء منه إلى اللغة العربية. ومعلوم أن كتاب د. أسد رستم وهو رئيس قسم التاريخ بجامعة بيروت الأمريكية، في كتابه المنشور عام ١٩٣٩ م في بيروت باسم (مصطلح التاريخ)ذكر أنه استمد أسس بحثه من علماء الحديث، الذين كان لهم قصب السبق في تحري الحقائق والأحاديث، وفي نقد النصوص نقدًا دقيقًا لاستخلاص الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الموضوعة. واقتدى بهؤلاء العلماء فيما بعد إخباريو العرب ومؤرخوهم.

ورأت الدكتورة ليلى أن المؤرخين العرب أدركوا كثيرًا من الأساسيات العلمية لمنهج البحث التاريخي بمضمونها الحديث وكتبوا فيها، ونموذجهم الأكبر(ابن خلدون) المتوفَّى عام ١٤٠٦ م بما طرحه في مقدمته عن التاريخ وطريقة البحث فيه، إضافة إلى الكافيه جي والسخاوي والسيوطي والفاسي، وإضافة إلى الغزالي (ت ١١١١م)، وابن الصلاح (ت ١٢٤٣م) وابن تيمية (ت ١٣٢٨م) والذهبي (ت١٣٤٨م). وأكدت د. ليلى أن ثمة مراجع أجنبية عديدة صدرت حول الموضوع، ولابدّ للباحث التاريخي من متابعتها ليعرف آخر ما توصل إليه الفكر المتطور في هذا الموضوع.

وينبغي أن نلفت النظر إلى أن مؤلفة كتاب المنهج لم تهمل قضايا ومشكلات يعيشها بعض المفكرين من جماهير الشعب في سورية. ومعلوم أن ابن خلدون (مثلاً) نظر إلى المجتمع البشري كعضوية تحيا وتنمو ثم تموت. ويدرك قارئ (مقدمة ابن خلدون) أنه تناول وحدة الحياة الإنسانية وتطورها واستمراريتها، وسبق بذلك (ماركس) في الحديث عن جدلية التاريخ وديناميكيته، ومفهومه الاقتصادي عنه. وأن الاجتماع الإنساني يتطور من البداوة إلى الحضارة، وأن الحضارات تتعاقب عليها ثلاثة أطوار هي: بداوة، ثم حضر، ثم انحلال اقتصادي وخلقي.

وأوجزت فقيدتنا آرائها في النظرية الماركسية مع المؤرخ ولش وغيره من المؤرخين بل والاقتصاديين، عن (أحادية التفسير التاريخي)، وكيف أنها لا تصلح لتعليل جميع أعمال الإنسان وفعالياته الحضارية، واقتبست د. ليلى عن الأستاذ كول cole، الذي درس المادية، بدقة وتعاطف كبيرين، قوله:" من السهل أن نتبع التشابه الكبير بين الهياكل الاقتصادية وتنظيمها السياسي وأجهزتها الاجتماعية.. " إلا أنه من الخطر أن نؤكد هذا إلى حدّ مفرط في البعد. وليست الحال قط أن المجتمعات التي في مستوى واحد من ناحية أسلوب الإنتاج، يجب أن يكون لها حتمًا نفس الأنظمة أو نفس الأشكال الاجتماعية

للعائلة، والعلاقات الجماعية، والمنظمات السياسية والدينية، أو الأفكار الخاصة بالقيم والأخلاق. فلقد أظهرت بحوث علم الإنسان (الأثروبولوجيا) أشكالًا حضارية مختلفة جداً، لا يمكن قط أن تفسر تفسيرًا اقتصاديًا محضاً. إن أقصى ما يثبته هذا التشابه إنما هو مجرد الاقتناع بأن الأنظمة الاجتماعية تتأثر بالظروف الاقتصادية، لا أنها تتعين بها وحدها. " إن الأساس الاقتصادي للمجتمع **عامل واحد** فقط من عوامل تصوير الشكل العام للحضارة حتى لو كان أهم عامل".[1]

جعلت الدكتورة ليلى التاريخ لا ينفصل عن المؤرخ، فهو مكتوب بجهد المؤرخ ويُبْرِز صفاته الفكرية والخلقية، ولكن يجب أن يضاف إلى ثقافة المؤرخ ذكاؤه ومقدرته على التخيل، وسلامة المحاكمة لديه، والفكر النقدي السليم لاكتشاف الزيف والخطأ والكذب، وهذا الفكر النقدي لا يوجَّه إلى المصادر والمراجع فقط، وإنما أيضًا إلى المؤرخ نفسه، وعلى المؤرخ أن يمتحن قدراته الذاتية ومدى ثقافته، وأن يُسائل نفسه هل طرح المشكلة الحقيقيّة، وهل كان عادلًا وصادقًا في نقدها ؟ على المؤرخ أن يكون منفتحًا على كل العواطف والتجارب الإنسانية، وعليه ألاّ تأسره أفكاره، وعليه ألاّ ينتظر من جهده المضني منفعة مادية، بل أن يتابع سيره مهما كانت الظروف بُغية إعادة قصة الإنسان، نابضة بالحياة كما عاشها إنسان الماضي.

وبعد، إن ما قدمته د. ليلى الصباغ إلى منهجية البحث التاريخي، يشكل نبراسًا متألقًا ينير السبيل أمام العاملين في مجالات التاريخ، وإن منهجية البحث التي بسطتها في كتابها تتطور على الدوام، إضافةً إلى جهود جميع رواد المعرفة التي تساعد حاملها على الوصول إلى الحقيقة، فالتعاون بين المؤرخ ومختلف العاملين في شتى حقول المعرفة واجب حتمي، إذا صمّم الجميع على بلوغ الحقيقة الخالصة.

---

(1) P. G. D. H Cole , The meaning of Marxism P. 57

إن جامعة دمشق يحق لها أن تفخر بهذه الدّرة القيمة العلمية التي أبدعتها المؤلفة، والتي يصح أن تعمّم وينطلق منها لتحقيق الأهداف التي يتطلع المؤرخ وسائر طبقات الشعب إليها، والتي تعين جهوده المضنية في عمله الخاص مع الماضي وهي (الانفتاح على الغير).

رحم الله فقيدتنا الغالية د. ليلى التي صبرت طويلًا على تقنيّات البحث المرهقة، لتخرج علينا بهذه الدراسة الفريدة.

والسلام عليكم

كلمة تلامذة الفقيدة

ألقتها الأستاذة الدكتورة نجاح محمد

بعد إحالة العزيزة المرحومة الفاضلة الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ إلى التقاعد قبل سنوات، هي والعزيزة الرائعة الأستاذة الدكتورة نجدت خماش حفظها الله وأمدّ في عمرها، قرّر قسم التاريخ، مشكوراً، القيام بتكريمهما. وفرحت حين جرى اختياري للإسهام فيه بكلمة عنها باسم تلاميذها. آنذاك، حين ألقيت كلمتي بتكريمها كانت جالسة أمامي، وأذكر تمامًا انطباعاتها. أما اليوم فأنا أقول كلمتي ولا أراها، رحلت، أشعر بالأسى، ولكن يعزيني قليلًا أنّه كان لي شرف الإسهام في تكريمها في حياتها، وفي تكريمها بعد مماتها، ممّا أتاح لي الفرصة للتعبير ولو عن جزءٍ صغير ممّا أكنّه، ويكنّه تلاميذها لها، من محبة واحترام وعرفان بالجميل.

صحيح أنّ التكريم هو فعل تعبير عن مشاعر التقدير والاعتزاز لأشخاص المكرّمين، لكنه بالدرجة الأولى هو فعل رصد ووعي والتزام بالقيم المعرفية العلمية والتربوية الوطنية والإنسانية، التي كُرمت بهم وكُرموا بها.

هذا هو تكريمنا للسيدة المرحومة الفاضلة الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ. نأمل: كلّ الرحمة لها وسكنى الجنّة، وكلّ العزاء لأهلها الكرام وللسادة في مجمع اللغة العربية وفي جامعة دمشق، ولهم كلّ الشكر والتقدير على مبادرتهم الطيبة هذه. كلّ العزاء لكم جميعًا ولكلّ من عرفها فأحبها فقدّرها، والعزاء لكلّ من تعلم منها وأدرك كم خسِرنا برحيلها، وأنا ممن تعلّم وأخذ منها الكثير من الدروس.

الدرس الأول كان عن طريق ما يدعى اليوم بـ "الاستشعار عن بعد". كانت مديرة لثانوية البنات، وكنت طالبة في دار المعلمات المجاورة لهذه الثانوية آنذاك.

كنت أراها يوميًا تقريبًا وهي تمر صباحاً، وكثيرًا ما كنت أسمع همسات طالباتها يخبرن بعضهن: "هَيْ المديرة، هَيْ المديرة"، ولم أكن لِأَمَلَّ من تأمُّلِها لأتمتم في داخلي دائماً: "ياسلام". سبحان الله: كانت سمات الجدّية، والحشمة، وقوة الشخصية، في مرآها واضحةً جدًّا. وأصبحتْ عن بعد دون أن تدري، ودون قصد، المثال المحتذى، وكان هذا الدرس الأول.

كنا حينها في مرحلة الانفصال، وقد زاد إعجابي بها بعد ما رُدِّد عن موقفها الدفاعي عن الوَحدة بين سورية ومصر. ومرّت الأيام، أصبحتُ طالبة في قسم التاريخ، ثمّ معيدة وأوفدت إلى فرنسا للتخصص، وحصلت على دكتوراه دولة من السوربون، وعدت وكم أسعدني اللقاء بها. كانت تدرّس، أهم مادة في القسم، برأيي على الأقل، وهي مادة "منهجية البحث التاريخي". وكتابها من أهم ما كتب بهذا الشأن. وبعقلها المنفتح كانت تحرص، أولاً، على التعريف بجميع المدارس والاتجاهات الفكرية في رؤية التاريخ وفي تفسيره، المادية والمثالية، الماركسية والوضعية وغيرها، ودون أن يفوتها التركيز على الدور الريادي للمؤرخين العرب وعلى رأسهم ابن خلدون. وتحرص، ثانياً، على التطبيق والتمرين العملي للطلاب على ما درَّسته لهم نظرياً، فكان هذا الدرس الثاني.

ماذا عن الدرس الثالث؟ كنت أظن، في عامي الأول من ممارستي للتدريس أنّ معيار النجاح هو مقدار كمّ ونوع المعلومات المعطاة إلى الطلاب. ولتحقيق هذا المعيار تعبتُ كثيرًا وأعطيتُ ساعات إضافية لأنهي المقرر بكماله، فكان ألمي كبيرًا من نسبة النجاح المنخفضة لديهم، على عكس ما كنت أتوقع، وكأن جهودي كانت بلا جدوى. أتيت الغرفة و،سبحان الله، لاحظتِ الدكتورة ليلى فورًا أني قلقة ومنزعجة جداً،

فسألتني: خَيراً، د. نجاح ماذا بك؟ شرحت لها الأمر، فهزّت برأسها مبتسمةً وقالت: مررتُ تمامًا بما أنت فيه الآن، ثم أدركتُ أنّ طريقة التدريس في الجامعة ليست امتدادًا لطريقة التدريس في المرحلة الثانوية، وإنما هي قائمة على البحث والتحليل العلمي لقضايا معينة تُفيد المجتمع والوطن والأمة، وبالطبع يجب أن تكون من مفردات المقرر في الكتاب الجامعي وليس كلّ ما فيه. وبعد مدة اكتشفت أنّ كلامها هذا، وبمنتهى الصدق، قد جاء منسجمًا مع أحدث مستجدات العملية التربوية والتعليمية الصحيحة، العالمية والعربية، وأدركت أنّ عليّ متابعة هذه المستجدات باستمرار للاستفادة منها في التدريس، وهذا ما أقوم به منذ ذلك الحين، فكان هذا الدرس الثالث.

والآن ماذا عن الفوائد التي حصلتُ عليها في خلال قراءاتي المعمقة للمؤلفات القيّمة للأستاذة الدكتورة المرحومة ليلى الصباغ؟ أكتفي بذكر أهمها:

أولاً)- على الصعيد التاريخي المعرفي: اكتسبتُ منها إسهامات في حلول لإشكاليات حتى فيما يخص التاريخ العربي القديم، وليس الحديث والمعاصر فقط، الذي هو مجال تخصصها. وقد أثبتت صحّة هذه الحلول علوم الإنسان (Anthropology)، كعلم الآثار واللغات والتاريخ وغيرها. منها، وفق تسلسلها التاريخي: عروبة السومريين قومًا وحضارةً. سقوط نظرية الأقوام السامية-الحامية-اليافثية، لغويًا وعرقياً، التي كشف الأستاذ الدكتور نعيم فرح أنها نظرية صهيونية. ورأت الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ أنّ تسمية هذه الأقوام بـ"العربية"، هي، "الأقرب للصحة والشمول والعمق في فهم التاريخ العربي واستطالته، وفي إدراك الحضارة العربية وتواصلها عبر العصور". واستفدتُ من رؤية المرحومة أيضاً، في كتابها القيّم "الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني"، بما يتعلق بإشكالية تقويم الحكم العثماني، المتمثّلة باختلافات الباحثين حوله، كلٌّ وفق مرجعيته

الثقافية. حول ذلك رأت الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ أنّ ما قدّمه هذا الحكم من امتيازات لليهود وللقوى العظمى الاستعمارية "كانت سببًا من أسباب القوة الاقتصادية لليهود في بلاد الشام، ومن ثَمَّ في تدعيم أحلامهم حول إنشاء وطن لهم على الأرض الشامية... وهذا لم يحدث في الماضي". هي جريمة بدون شكّ ولكن لننتبه إلى أنّ من قام بها هي الأسرة العثمانية الحاكمة باستثناء السلطان عبد الحميد الثاني، الذي رفض عرض هرتزل بهذا الشأن، والشعب التركي براء منها بالتأكيد، إذ كان مقموعًا ولا رأي له كبقية شعوبها التي كانت تابعة لها.

ثانياً)- على الصعيد التاريخي المنهجي: الاستفادة من ثلاث خصائص رئيسة تميّزت بها أبحاث الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ: الأولى وجود منهجية تأريخية واضحة: خطّةً، وتوثيقاً، وشموليّةً، وموضوعيّةً. الخاصة الثانية هي وجود توجّه وطني قومي عروبي إسلامي إنساني دون أيّة خلفيات أو مواقف ذهنية تعصبية سابقة، تُفسر الحدث وضعيًا أو تحليلياً. الخاصة الثالثة هي وجود رؤية فكرية مستقلّة تدعمها نزعة إنسانية رائدها الإيمان بالعقل الإبداعي الحرّ. إعجابي بهذه الخصائص هو الذي يفسّر أنّني لا أرى نفسي في أحيان كثيرة إلاّ وأنا استشهد بأقوالها وأفكارها في محاضراتي التدريسية، ومنها:

١- تُنبّه القارئ لضرورة البحث عمّا وراء ظاهر النصوص قائلةً: "لا تكتفِ، قارئي، بما يبين للعين فحسب، الخفيُّ عنها في معظم الأحوال هو الهام والخطير والكبير، وهو الأصيل والحقيقي".

٢- تؤكّد في رؤيتها الشمولية لكارثة فلسطين أنّها أكبرُ تحدّ للوجود العربي، مركّزةً على كلّ أبعادها الدولية، وبخاصة السياسية والاقتصادية، ومنها دور البترول العربي في اقتصاد وصناعة وحياة الغرب الأوربي والأمريكي. ورأت المرحومة في الحروب العدوانية

لتحالف الاستعمار الغربي والصهيونية، وبخاصة على مصر والشام، "مظهرًا من مظاهر الرغبة في القضاء على الحركة العربية وتفتيت تيارها القوي، أو على الأقلّ إعاقة تقدمها"، مؤكّدةً أنّ حرب تشرين عام ١٩٧٣ كانت "الردّ العربي".

٣- تقول في رؤيتها المنطقية الإنسانية لدور المرأة والرجل: "الهدف الإنساني الذي يسعى إليه الطرفان على هذه الأرض واحد، والطريق واحد، والتاريخ واحد من بناء الاثنين معاً، وبقدْرٍ متساوٍ من الجهد والعطاء والعمل، لا فضل لواحد فيه على الآخر، ولا قيمة إنسانية لواحد منهما على الآخر". إنّها المساواة التكاملية.

٤- حول علم التاريخ تؤكّد أنّه عطاء حضاري عربي-إسلامي أصيل اسمًا وأصلًا وفروعاً، تأريخًا ومنهجية، وأنّ القرآن الكريم هو "تاريخ العرب الكبير" الذي لم يَحْوِ ماضيهم فحسب بل ماضي الوجود الكوني، وماضي الوجود الإنساني، وحاضر الحدث الضخم الذي يعيشونه، وخطَّ المستقبل الذي يأملونه".

٥- أخيرًا لنسمع ما ذكرته الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ في كتابها "المرأة في التاريخ العربي القديم"، حول الفئة الحرّة من نساء العرب، المدعوّة بـ"المرأة البرزة" أي "المرأة السيدة". تقول: هي المرأة "التي تحدّثت عنها كتب التاريخ والأخبار، وهي المرأة المتميّزة الحصيفة، العاقلة، الحكيمة، القائدة، التي عاشت لمجتمعها الأسري الأصغر ولمجتمع قومها الأكبر في آن واحد... هي التي ربّت الكُمَّل من الرجال، وزودت المجتمع بفضليات النساء... هي المرأة القويةُ الذات، المكينة الشخصية التي عاشت مجتمعها وقضاياها الكبرى... هي التي تذبّ عن كرامتها وكرامة قومها وتثور على الطغيان، وتعتزّ بذاتها". نعم إنّها المرأة الحرّة البرزة التي عرفها العرب القدماء، والتي ربتهم رجالًا حقيقيين بَنَوا دولتهم القوية الحضارية في هيمنتها العالمية شرقًا وغرباً، قديمًا ووسيطاً.

أنهي الكلام بالتأكيد أنّ الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ هي المرأة البرزة النادرة التي نحتاج إلى مزيد منها اليوم. كلّ المحبة والتقدير لها ولعطاءاتها. أشعر أنّها قد رحلت وارتاحت من معاناة آلام ما تعيشه سورية الحبيبة اليوم من تآمر رهيب. بكلّ خشوع نتمنى: الرحمة والجنّة لها، والخلاص لسورية، والعزاء للجميع.

المصادر المعتمدة:

١- ليلى الصباغ: **دراسة في منهجية البحث التاريخي**، مطبوعات جامعة دمشق، ١٩٨٨- ١٩٨٩.

٢- ليلى الصباغ: **المرأة في التاريخ العربي، في تاريخ العرب قبل الإسلام**، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٥، وبخاصة المقدمة وص ٤٦٤-٤٦٦.

٣- ليلى الصباغ: **تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، مطبعة ابن حيّان، دمشق، ١٩٨١- ١٩٨٢.

٤- ليلى الصباغ: **الحضارة الغربية الإسلامية والتاريخ** (أحد بحوث المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة الإسلامية الذي عقد في دمشق فيما بين ٢٠ و٢٦ نيسان ١٩٨١، والتي نشرت في مجلّد من قبل وزارة التعليم العالي، ص٢٨١- ٣٠٨).

٥- ليلى الصباغ: **الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩.

كلمة تلامذة الفقيدة

ألقاها ابن شقيقها المهندس عامر الصباغ

أشتاق إليك

أدخل إلى بيتك الأليف الخالي منك فتتمثلين لي هاشَّة باشَّة كعادتك، وأسمعك تستقبلينني بعبارات الترحيب والسؤال عن الكبير والصغير.

أجلس إلى جانب سريرك الفارغ مُقلبًا في أشيائك الصغيرة...

الموت ينتصر في النهاية، كدأبه دائماً، ولا يبقى لنا سوى صور جامدة تعيد إليها ذاكرتُنا الحياة بما تختزنه من وقائع وأحداث وذكريات؛ فها أنت في غرفة مكتبك وحولك الكتب التي زحمت الرفوف وفاضت فتكدست في الزوايا، أو في سريرك تقرئين تحيط بك الأوراق والكتب، أو في غرفة الجلوس تُغْنين نقاشاتنا بثقافتك الموسوعية، أو في المطبخ تعدين لنا طعام أول أيام العيد حيث تجتمع الأسرة كلها لديك، أبناء الأخ والأخت وأولادهم، في تقليد جميل حافظتِ عليه بعد وفاة جدتي؛ وما زلنا جميعنا نذكره بكثير من الحنين المشوب بالأسى على مناسبات سعيدة انقضت ولن تعود.

لست هنا للحديث عن شخصية الدكتورة ليلى الصباغ، ولست في وارد تعداد إنجازاتها ومآثرها، بل إني لا أعتبر نفسي أهلًا لإعطاء رأي غيرِ منحاز، فالعواطف والوقائع تتداخل لدي وتتشابك. ولكن اسمحوا لي أن أحدثكم عن شخصية "عمة ليلى" من وجهة نظري كشخص قريب منها من الناحية الأسرية والعاطفية.

لقد كانت جدتي فوزية وعمتي ليلى جزءًا أصيلًا من عائلتنا الصغيرة، وكان والدي يحرص على زيارتهما يومياً، وقد استمر بعد وفاة جدتي في زيارة عمتي كل يوم إلى أن أقعده

المرض، فتسلّمنا منه الراية. كانتا حاضرتين في جميع مناسباتنا، فلا طعم لأي جلسة من دونهما، ولا تحلو أية نزهة إلا بصحبتهما؛ وقد ارتبطت عمتي بأمها بوشائج غير عادية، إذ كانت لها الصديقة والرفيقة والصدر الحاني الذي تلقي عليه برأسها، فكان رحيلُها صدمةً قوية لها ووجدت صعوبة بالغة في التغلب على ألم الفراق.

أمضت عمتي ليلى سني طفولتها الأولى في بيت جدها لأمها أحمد الأبرش حيث انتقلت أمها للعيش مع أولادها الثلاثة حياة وفيصل وليلى بعد وفاة زوجها في رحلة الحج. وقد أغدق الجدّ عليها حبه ورعايته، إذ كان يشعر بحنان غامر نحو تلك الطفلة الشقراء، الزرقاء العينين، التي لم ترَ أباها قطّ. وتذكر عمتي أنها كانت ذات حظوة لديه، وكان يأخذها في حضنه ويغطيها بعباءته عندما يبدأ أولاد الأسرة الأكبرون سنًّا في مضايقتها، فلا يجرؤ أحد على الاقتراب منها. لم يكن جو العلم بعيدًا عن عائلة أحمد الأبرش، فابنه علي الأبرش كان طبيبًا تخرَّج في مدرسة الطب التي أنشأتها الدولة العثمانية في دمشق عام ١٩٠٣ والتي كانت تدرس العلوم الطبية باللغة التركية قبل انتقالها إلى بيروت في العام ١٩١٥. وقد كان لوفاة هذا الجد الذي كانت تدعوه "أبي" وهي في العاشرة من عمرها وقعٌ بالغ الأثر في نفس ليلى الطفلة التي عادت مع أمها وأخيها (وكانت أختها حياة قد تزوجت) للعيش في بيتهم المستقل، حيث كان على الأم أن تؤدي مجدَّدًا دور الأم والأب، فجاهدت وأعطت، هي الأُمِّيَّة التي لا تعرف القراءة والكتابة، حتى وصل ولداها إلى أعلى المراتب العلمية والمهنية. فوفرت لهم الجو والوقت والدراسة وتحملت الأعمال المنزلية وحدها دون مساعدة. وخلافًا لوالدي الدكتور فيصل الصباغ الذي كان ذا طبيعة تميل إلى المرح والدعابة والرغبة في التمتع برفاهية الحياة، اتّصفت عمتي ليلى بالجدّية، جدّية إنسانة نذرت نفسها كلّية للعلم ولا شيء غيره.

كانت الساعات تنقضي وهي جالسة بين أكداس الأوراق والكتب تبحث وتنقّب وتكتب بدأب لا يعرف الكلال. وقد أكسبها إهابُ الجدّية والحزم هذا مهابةً كبيرة جعلتنا نحن، أولاد شقيقها وشقيقتها، نحرص في صغرنا على ألاّ يبدر منا ما يثير استياءها الذي كنا ندركه من عبوس وجهها واقتضاب حديثها. ولكن خلف هذه الجدية كان ثمة بحر من المحبة والكياسة والاهتمام بأدنى تفصيل في مصلحة الشخص المخاطب، سواء أكان من أفراد العائلة أو من الطلاب أو الأصدقاء.

كان هذا يبدو لكل من قصدها في أمر ما أو مشكلة، إذ كانت تستمع إليه بعناية الأم وانتباه المعلم وصلابة المربي، موجهة الحديث باللغة العربية الفصحى كعادتها حتى في البيت. وهذا ما ترك لدى طالباتها وطلابها أثرًا عميقًا تجلى في تلك السمعة التي بلغت آذان حتى الذين لم يعاصروها، إذ كثيرًا ما امتدح معارفي عمتي ذاكرين مناقبها وسجاياها ولم يكونوا قد التَقَوا بها، بل سمعوا إخوتهم أو أخواتهم أو أمهاتهم ممن تلمذوا عندها في الثانوية أو على مقاعد الجامعة يتحدّثون عنها. كما تجلى في استمرار تواصل عدد من طلابها وطالباتها معها حتى آخر حياتها، وفي أكداسٍ من الرسائل التي يبدأ كثير منها بعبارة "أمي الحبيبة" أو "أمي الثانية".

أثار عزم عمتي على السفر إلى القاهرة، بعد نجاحها بتفوق في امتحان لاختيار طلاب للدراسة في جامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً) أثار انتقادات كثيرة في وسطها العائلي والاجتماعي في وقت كان فيه دخول الفتياتِ الجامعةَ في حد ذاته قضية خلافية، فما بالكم بسفر فتاة في الثامنة عشرة من العمر بمفردها؟ غير أن الصبية الطموحة تحدّت، بكل عنفوان شخصيتها، تلك الأعراف التي كانت تكبِّل انطلاق المرأة إلى ميادين العلم والعمل، وسافرت بتشجيع من أخيها ووالدتها التي حباها الله عقلًا منفتحًا وذهنًا متنورًا.

كان لدراستها في القاهرة، التي كانت في أربعينيّات القرن الماضي منارة للأدب والفكر والفن، والاحتكاك في جامعتها العريقة بنخبة من أهرام الثقافة والعلم، دورٌ كبير في بناء شخصيتها الشَّغُوفة بالتعلّم والمعرفة، كما كان لإقامتها في بيت الطالبات دور في إثراء فكرها التنظيمي وحبها للانضباط، اللذين تجليا فيما بعد في إدارتها لثانويتي البنات الأولى والثانية.

كما تأثرت بالحركة النسائية المصرية وفكرة المساواة بين الرجل والمرأة؛ فتخلت عن اللباس الذي كانت تفرضه الأعراف والتقاليد آنذاك ودفعتها استقلاليتها إلى اقتناء سيارة وتعلم القيادة، فكانت من النساء القلائل اللواتي قُدْنَ سيارة في ذلك الوقت.

لم تنتمِ عمتي ليلى إلى أي حزب سياسي، ولكنها عاشت نهضة القومية العربية وصعود الفكر الناصري الوحدوي، فآمنت به بشدة وظلت متمسّكة بالفكر القومي حتى النهاية.

ولطالما رددت أن ذهابها إلى الجزائر أستاذةً مُعارةً لمادة التاريخ، لم يكن بدافع الكسب المادي بقدر ما كان رغبة منها في المشاركة فيما اعتبرته واجبًا مقدسًا في استعادة الوجه الثقافي العربي للجزائر، وهو ما هدفت إليه الحكومة الجزائرية من الاستعانة بالمدرسين العرب آنذاك.

وقد عملت على ترسيخ الشعور القومي هذا في نفوس طالباتها في المدرسة الثانوية، وكانت تحثهن على المشاركة في المظاهرات التي خرجت مستنكرة العدوان الثلاثي على مصر، أو مطالبة باستقلال الجزائر، أو مؤيدة للوحدة مع مصر. وقد ظلت على إيمانها بالأفكار الوحدوية بعد إخفاق الوحدة مع مصر، ودافعت عن قناعاتها بشجاعة وإخلاص مما أثار حفيظة سلطات الانفصال وقتها، وانتهى الأمر إلى عزلها عن إدارة ثانوية البنات الأولى.

ومع أنَّ عمتي تنقَّلت بين مناصبَ شتى، فإن حبها الأكبر بقي للعمل التربوي، للإدارة والتدريس. وكثيرًا ما كانت الذكريات تحملها إلى تلك الأوقات السعيدة فتحكي لنا بفيض من الحنين عن تلك الحقبة التي كانت فيها مديرة لثانويتي البنات الأولى والثانية، كانت تغادر بيتها متّجهة إلى المدرسة قبل شروق الشمس ولا تعود إلا بعد المغيب، واقفةً جهدَها وكلَّ وقتِها لتطوير العملية التربوية، برفد المدرسة بالنشاطات المختلفة، حيث اقتنت ما يلزم من أدوات وأجهزة رياضية وآلات موسيقية حتى البيانو، إضافة إلى الإذاعة المدرسية ومجلة الحائط والمكتبة والمخبر والرحلات المدرسية حتى إلى أوربا، وكلها تعد من الأشياء الجديدة في المدارس السورية. وإن المرء ليعجب حين يرى لديها هذا العدد من الصناديق الملأى بعشرات الدفاتر والمذكرات المكتوبة بخط اليد فيما يتعلق بالمناهج والمدرسات والطالبات والنشاطات المدرسية وجداول مرسومة ومنظمة بدقة فائقة.

كانت تجتمع في مطلع العام الدراسي بكل طالبة على انفراد لتتعرف وضعَها من الناحية المادية والعائلية، وما لديها من ظروف تعيق دراستها، وتجتمع بالأولياء دوريًّا لإطلاعهم على وضع بناتهم الدراسي. وقد استطاعت أن تكسب ثقة الأهالي حتى إن أكثرهم محافظة وتشددًا كانوا يسمحون لبناتهم بالذهاب في رحلات بعيدة ما دُمْنَ في عهدة ليلى الصباغ.

وقد أمضت في مصر عامًا بين ١٩٥٨ و ١٩٥٩ موفدة للاطّلاع على النظم الإدارية المصرية، فجالت في المدن المصرية وزارات عددًا كبيرًا من المدارس وعادت بحصيلة كبيرة عملت على تطبيق الكثير منها.

وقد حلمت بإنشاء مدرسة وفق معاييرها واشترت الأرض اللازمة ولكن لم يقدر لمشروعها أن يرى النور.

وكان انتخابها لعضوية مجمع اللغة العربية عام ٢٠٠٠ علامة فارقة في حياتها، كأول امرأة سورية تنال عضوية مجمع الخالدين، وقد تَوَّجت هذه العضويةُ سنواتِ عطائها في مجال البحث والتأليف والكتابة.

عمتي الحبيبة

لقد غمرتِنا بحب كبير، حب ظل مَعينُه يتجدد فغمر كذلك أولادَنا وأحفادنا.

كنتِ لنا المثل والقدوة

وزرعتِ فينا علمًا وخلقًا

فقد حملتِ العلم كرسالة، وكانت الأخلاق جزءًا منك

وحين أفكر في كل ما علمتنا إياه، وفي الفخر الذي جعلتنا نحس به، أشعر نحوك بِعِرفانٍ للجميل عظيم. لم يكن هناك مثيل لعطائك

ولا نظير لهذا التفاني والإخلاص والشعور بالمسؤولية

كنتِ شخصًا استثنائيًّا.. بعلمكِ وثقافتك..

بتلك الاستقامة والترفّع والسلوك الرصين

بذلك الخلق واللطف ودماثة الطبع

بذلك الأدب الذي لم تُسمع معه كلمةٌ نابية تصدر عنك مرة أو شتيمة

بذلك الاجتهاد والتصميم والدأب الذي لم يتسرّب إليه الوهن

وذلك التواضع الجمّ الذي جعلك مُقِلّة في الحديث عن نفسك وعن إنجازاتك، وجعلكِ تشعرين بالخجل كطفلة عند سماع المديح.

بتلك الثقة بالنفس والشجاعة في التمسك بالمبادئ

إذ لم تنافقي، ولم تتملّقي

لم تتسامحي مع الخطأ، ولم تساومي

ولم تخشي في الحق لومة لائم.

وقد أحسستِ بالغربة في هذا الزمان الذي تردّت فيه الأخلاق والقيم والمعايير، فآثرتِ الانسحاب. عليك رحمة الله يا عمَّة ليلى.

باسم العائلة أشكر السيدة نائب رئيس الجمهورية الدكتورة نجاح العطار على مواساتها.

كما أشكر السيدة وزيرة الثقافة الدكتورة لبانة مشوِّح، ورئيس وأعضاء مجمع اللغة العربية، والسادة أصحاب الكلمات والحضور الكريم.

من آثار الفقيدة ومؤلفاتها

- المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني.
- تاريخ العرب الحديث والمعاصر.
- معالم تاريخ أوربا في العصر الحديث.
- نساء ورجال في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع.
- من الأدب النسائي المعاصر العربي والغربي.
- المرأة في التاريخ العربي : العصر الجاهلي.